الجوع والمرض

فى عالم الطبقات الفقيرة

للأستاذ فايد العمروسى

ليست ظروف الحرب وحدها هى التى حرمت الطبقات الفقيرة من التغذية الكاملة ، ولكنها حالة قائمة قبل هذه الأزمات التى نعانيها الآن ، ثم جاءت الحرب الحاضرة فزادتها سوءا على سوء ، فالطبقات الفقيرة بما فيها صغار الزراع والعمال تعيش فى عالم مظلم بعيد عن تفكير أرباب الثراء ، لا يكاد يحس بها نظام المجتمع أو يعترف لها بوجود .

فى مصر عالمان من الأحياء ليست بينهما أية رابطة من التشابه أو الموازنة ، فعالم غارق فى بحبوحة من سعادة العيش ورغده ، وعالم غارق فى البؤس والضنك والشقاء ، وليس بين العالمين حالة متوسطة إلا فى القليل النادر من طبقات الموظفين وهم قليل .

وأى شىء ذلك العالم الجائع ؟ هو نصف الشعب أو يزيد ، هو القوة العاملة المنتجة التى يقوم عليها كيان الأمة ، أو هو الأمة الحقيقية .. ولا أدعى أن ولاة الأمور ظلوا غافلين عن أمر هذه الطبقات ، أو أنهم أهملوا شؤونها وتناسوا خطرها ، فمنذ أعوام بدأ المصلحون يحسون بوجود أمة داخل أمة ، أمة محرومة من ضرورات الحياة ، ومنذ أن أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية والاهتمام بأمر هذه الطوائف يخطو سريعا فيما يتعلق بحقوقها وتغذيتها وصحتها ومساكنها وتعليم أبنائها ، وعلى الرغم من هذا الاهتمام الجدى فإنه لم يظهر من الإصلاحات العملية إلا القليل ، وإن كانت قد بدت أشياء فى صور اقتراحات وتكوين لجان ورسم مشروعات وتهيئة قوانين .

آلاف من الأسر الفقيرة العاملة تحتوى كل منها خمس أنفس أو أكثر لا يزيد دخل الأسرة منها على جنيه أو جنيهين فى الشهر ، هذه الأسر جميعها تقوم تغذيتها الأساسية على الخبز — إن وجد — وعلى الفول والعدس كل يوم دون استثناء ؛ لا يعرفون من اللحوم والفاكهة والحلوى بأنواعها غير أسمائها ، وملايين من الأطفال والصبيان والشبان جائعون ، تتوثب أحشاؤهم شوقا إلى طعم الدسم ورائحة الأدم وهم عاجزون ، يرغمهم ضيق المادة والعدم وارتفاع الأسعار .

* * *

قد يستغرب بعض أغنيائنا هذا الكلام ، وإنه حقا لغريب !! ولكن من يعش بينهم يحس ما يحسون ، وبركل دقيقة وكل ساعة آلافا منهم فيما يقاسون ، ويعرف كيف يعيشون

فى منزلهم وكيف يأكلون وكيف ينامون، ولن يستغرب هذا الكلام لأنه يرى بعينيه لا بخياله ويحس شقاءهم إحساسا ماديا له وخز أليم .

إن مرحلة السن التى يجوع فيها هؤلاء الملايين من الناس أو يتغذون تغذية رديئة هى أدق وأخطر مرحلة من مراحل العمر فى صحة الأجسام ، هى المرحلة المهمة المحتاجة إلى التغذية الكاملة أو الصحية على الأقل ، وهى المرحلة التى تتكون فيها أسس الأجسام والعقول ويتقرر فيها مصيرها ، فإما أن تنشأ سليمة قوية فتصح وتنفع ، وإما أن تنشأ هزيلة سقيمة فتسوء وتمرض ؛ ومستقبل الأمة العملى رهن بهاتين الحالتين .

هناك الأحياء الوطنية فى المدن وفى الريف كله بوجه عام ، تصفح وجوه الأحياء فيها طفلا وطفلة وشابا ورجلا ، إنك لن ترى غير الهزال والكسل والفتور وتراخى الأعضاء وشحوب الألوان ، ترى احتضارا بطيئا مطبقا على هذه الأجسام ، احتضارا فى الأجساد والأرواح والعقول ، احتضارا فى كيان الشعب الجوهرى وبذوره الحية التى لا تعوض .

وأنا لا أزعم أن فى طاقة الحكومات تيسير المعيشة الكاملة أو الصحية لكل هذه الطوائف الكثيرة ، ولا أزعم أن فى ميزانية الدولة ما يكفى لرفع مستواهم وإنقاذهم من براثن الفقر والجوع دفعة واحدة ، ولكن أزعم أن فى وسعها بعض الإنقاذ النسبى فى كثير من الإسراع .

إن الحكومات المتعاقبة تعنى أهم العناية بالمسائل العمرانية على اختلاف أنواعها وتعدد صورها ، فهى قد عنيت وتعنى الآن بإقامة الجسور العظيمة وإنشاء المستشفيات بالمجان وإقامة المعارض وفتح الجامعات والمدارس العليا وما شاكل ذلك ، كل هذا ولا شك يتطلب منها إنفاق الكثير من الأموال ، أفلا كان جزء من تلك الأموال الطائلة منقذا بعض الإنقاذ لهذه الطبقات التى يعوزها أهم ضرورات الحياة وهى التغذية الكاملة ؟

إن إقامة جسر عظيم ليس أعظم نفعا ولا أجل أثرا من تغذية بضعة ألوف من أبناء العمال والزراع الفقراء ليصبحوا عناصر قوية فى بناء الأمة الناشئة التى تجارى الزمن وتخطو فى ميدان الرقى مع الأمم المتحضرة ، وبأى السواعد تقام هذه الجسور مثلا إذا كانت سواعد البلاد مشلولة بالفقر والعدم وسوء التغذية ؟ ولمن تصرف القناطر والخزانات مياه النيل العظيمة إذا كان صغار الزراع محرومين من خيراتها ؟

والمستشفيات بالمجان تقام فى أنحاء البلاد لهؤلاء الفقراء المرضى ! إننا لا نسحو عليهم بالطعام وهم أصحاء ، ونسخو عليهم بالدواء وهم مرضى ، لو تغذى هؤلاء الناس ما مرضوا ، ولو مرضوا لأغنتهم التغذية الجيدة عن الدواء ، فبعض ما ينفق فى إقامة المستشفيات منقذ أيضا أى إنقاذ من الجوع والأمراض .

ولمن تنشأ الجامعات والمدارس العاليـة ؟ إنهـا تنشأ لطوائف من الناس عاشوا غير جائعين وتثقفوا بقدر كاف من الثقافة يؤمن معه العيش فى الحياة ، هذا عظيم ولا شك ، ولكن أين جيوش الأطفال فى التعليم الإلزامى وقد عاشوا جائعين ، ولم يتثقفوا فى قليل ولا كثير ؟ ؟

أنا لا أدعى أن لكل حقا فى التعليم بجميع مراحله ، ولكن أدعى أن لكل حقا فى الحياة ما دام قد خلقه الله وأن من حق كل فرد أن يعيش ، ومن حقه ألا يموت جوعا ، ومن حقه أن يقول لمن وصل إلى التعليم الجامعى : "قف هنا حتى أطعم بعض الطعام فإنى خائر القوى جوعان" .

ولشد ما أبتسم حين أذكر تغريم أولياء أمور التلاميـذ اذا امتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الالزامية ، أبتسم ابتسامة الألم لأنى — وأنا قروى — أعرف مدى حاجة الأجير أو العامل الى ابنه الصغير ، إنه يساعد أباه فى الحصول على ضرورات الحياة اليومية ، انه لم يمنعه من المدرسة بطرا أو رغبة عن التعليم أو جهلا بقدره ، ولكنه منعه لأن الطفل أولا جائع ، وثانيا عار ، وثالثا لأنه يجمع القوت اليومى مع أبيه وأهله ... وبجانب هـذه الابتسامة الأليمة أبتسم ابتسامة أخرى فيها الرضاء والتفاؤل والتقدير للمشروعات القائمة الخاصة بتغذية هؤلاء التلاميذ ، والأمل وطيد فى جهـود وزارة المعارف أن تعمل على زيادة نسبة الأموال المقررة لتنفيذ هذا المشروع الجليل ، فإنه بوضعه الحالى يعتبر نواة لما تزل صغيرة وإنا لنأمل لها التضخم والمزيد .

* * *

ان كل قرش من مالية الدولة يحسن معيشة هذه الطبقات لهو قرش حلال ، إنه يطعم آلافا من الأطفال والصبيان من سن السابعة الى سن الثالثة عشرة ، إنه يكون جيوشا من صحيحى الأجسام والعقول أبق وأنفع أثرا من الجيوش المحاربة والأساطيل ، إن العناية بتوفير اللقمة الجيدة لهذا النشء الفقير أولى وأجدر من العناية بمسكنه وملبسه بل وعلاجه من المرض اذا لم يمكن العناية بها جميعا .

لقد رأيت بعينى مئات المرات بعض العمال الشبان الذين يقيمون المنشآت بسواعدهم ويحيون الصناعات بقواهم الجسـدية يتناولون الخبز والمش والبطيخ الفاسد الرخيص ، وأعرف مئات الأسر من صغار الموظفين والمستخدمين المعيلين لم تدخل اللحوم منازلهم فى هذه الأزمات ، ومن أطفالهم من يذهب الى المدارس دون زاد فى الصباح ، أما المستأجرون من الزراع وصغار الملاك فأمرهم ليس فى حاجة الى إيضاح أو دليل .

هذا ، وليس المطلوب أن توزع الحكومة على هذه الطوائف الأموال من خزانتها ، أو أن تطعم الناس كما يشتهون ، ولكن المطلوب أن يكون تحسين معيشة هـذه الطوائف أمرا هاما من أمور الدولة الاجتماعية وأن تنال حالتهم نصيبها من التقدير كأخطر أمر من أمور الدولة وكأهم شأن من شؤونها ، وإن بعضا من التغيير فى إيرادات الدولة بالزيادة ، وبعضا من النقص فى مصروفاتها التى تعتبر كمالية بالنسبة لشعب فيه هذه الطوائف بحالتها الراهنة ، بعض هذا أو كله ميسر التنفيذ .

* * *

هذه المشكلة كما قلت ليست وليدة الحرب الحاضرة ، إلا أنها الآن أوضح وأشـد ، وقد زادتها ظروف الحرب وضوحا وقسوة ، فارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية وتلاعب التجار كل هذا زاد فى قسوة المعيشة عامة وتجسمت هذه القسوة بشكل مزعج فى الطبقات الفقيرة التى يجوع منها كثيرون فى هذه الأيام .

تحدث هذه الآلام وتشتد قسوة الحالة على هذه الطبقات العاملة الفقيرة فى الوقت الذى لا تجوع فيه بعض الكلاب لبعض الناس ...! بل فى الوقت الذى يموت فيه كلب لراقصة فتقام عليـه المـآتم والمناديب ، وتنهال برقيات العزاء وتصرف مئات الجنيهات صدقة على روح المرحوم ... !

على أن هذه المشاكل الاجتماعية وأمثالها ليست وقفا على مصر وحدها بل تكاد تكون عامة فى كثير من الدول إلا أنها فى مصر بدرجة لا يرتاح لها إنسان ، ولقد عرفت مما قرأت أن بعضا من البلاد الأوربية والأمريكية عالجت مشكلة التغذية للطبقات الفقيرة والعاملة التى لا تستطيع أن تتغذى تغذية كاملة أو صحية ، فعمدت إلى تكوين مجالس عليا للعناية بشؤون التغذية ومساعدة العاجزين عنها بتحسين دخلهم ، ولمـا كان نظام الغذاء اقتصاديا بحتا فقد أشارت اللجـان المكونة على حكوماتها بتعديل سياسة الجمارك وضرائب وسائل النقل ، وبهذا ضمنت اللجان تخفيض أسعار المواد الغذائية فاستطاعت هذه الطبقات أن تجد ما تعيش به .

وليس معنى هذا أن كل علاج يصلح فى بلد يصلح فى أخرى ، ولكن معناه أن العلاج ممكن ، وأن كل محاولة أو تصرف على ضوء طبيعة البلاد الجغرافية وفى حدود النظم الاقتصادية فيها إن لم يصل الى نهاية الغاية المرجوة من الإصلاح فهو واصل حتما إلى جزء منها ، ومعنى هذا أيضا أن غيرنا من الدول عانى ما نعانيه نحن الآن ففكر وداب وناضل وتحايل حتى حل مشكلته أو قرب من الحل .

وأخوف ما أخافه أن نستهين بهذه الملايين التى تقاسى الجوع والفاقة فى هذه الظروف العصيبة فينشأ جيل جديد موبوء بالأمراض والبطالة ، ونفاجأ بجيوش جرارة من مرتكبي الشرور والجرائم فى الوقت الذى تكافح فيه الحكومة أسباب الشرور والمفاسد ، وفى الوقت الذى تعنى فيه باليتامى واللقطاء وتربية الأحداث و إيواء المتشردين ، وفى الوقت الذى تغسل فيه عار البغاء وتمحوه ، وفى الوقت الذى ستواجه فيه بعد الحرب مئات من المشاكل الاجتماعية المعقدة التى تتطلب جهودا واخلاصا وكفاءات ممتازة .

فايد العمروسى

قال أعرابى لهشام بن عبد الملك : " أتت علينا ثلاثة أعوام : فعام أكل اللحم ، وعام أذاب الشحم ، وعام انتقى العظم . وعندكم أموال فإن كانت لله فادفعوها إلى عباد الله ، و إن كانت لعباد الله فلا تحبسوها عنهم ، و إن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فان الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين "

فقال هشام : " فهل من حاجة غير ذلك ؟ " قال : " ما ضربت إليك الإبل ، أذرع الهجير ، وأخوض الدجى ، لخاص دون عام " .

قيل لأعرابى : ما اسم المرق عندكم ؟ قال : السخين . قيل فإذا برد ؟ قال : لا تركه حتى يبرد !

ما لابن آدم والفخر : أوله نطفة وآخره جيفة ، ولا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه .